بناء شخصية المؤمن في زمن الغيبة[1]

المدة التي تعيشها الطائفة الشيعية الممتحنة -مدة غيبة ولي الأمر عجل الله فرجه- هي مدة عصيبة، لكنها ليست غريبة، إذ جُبلنا على المحن عبر تاريخنا الطويل، ووظيفتنا الأساس ليست الانشغال بالنتائج التي تكفّل الله بها، بل التركيز على جوهر وجودنا.

فالوظيفة المحورية للمؤمن في عصر الغيبة هي بناء نفسه وذاته واستكمال نواقص شخصيته، فعلى المؤمن أن يجتهد ويعمل ويبذل كل غالٍ ونفيس من أجل بناء نفسه، ويتجنب الغرق في مسارين يلهيانه عن مهمة بناء الذات:

أولًا: رفض التوقيت: لا نغرق في عالم التوقيت ونربك أنفسنا، فكل من يظن أو يوقّت -يحدد مواعيد للظهور- هو في وهم كبير، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَن أخبركَ عنّا توقيتاً، فلا تهابَنَّ أن تُكذّبه، فإنّا لا نُوَقِّت لأحدٍ وقتاً»[2]، وعن الفُضَيل، قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام: هل لهذا الأمر وقت؟ فقال: «كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون»[3].

والتاريخ يثبت أن التوقعات حول "نهاية الإسلام" لم تتحقق؛ فمثلاً، توقع بعض الناس نهاية الإسلام

(١) استفيد البحث من محاضرة السيد أحمد الحكيم في مركز مدرك بعد ترتيبها.
(٢) غَيبة النعماني: ٣٠٠.
(٣) غَيبة الطوسي: ٤٢٦.

إثر سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هـ، لكن حفيد هولاكو تحول إلى التشيع، بل واستمرت الدولة الإيلخانية لترعى العلماء وتُعمر المشاهد في العراق.

ثانيا: الابتعاد عن تكلف التفسير: الروايات الشريفة تتكلم عن علامات ظهور حتمية، ولكن الله سبحانه وتعالى سوف لن يُظهر حجته إلا بحجة واضحة للناس لا يختلف فيها اثنان، والصيحة سوف يسمعها كل أهل لسان بلسانهم، فعَنْ زُرَارَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: النِّدَاءُ حَقٌّ؟ قَالَ: «إِي واللهِ حَتَّى يَسْمَعَهُ كُلُّ قَوْمٍ بِلِسَانِهِمْ»[4]. ولذلك، يجب ألا نتكلف تفسير الأخبار والدلائل وتأويلها.

أزمة الرجولة وبناء رب الأسرة:

إن المشاكل الأسرية والاقتصادية والسياسية ونحوها في هذا العصر ترجع كلها إلى مشكلة الفرد، لا سيما الرجل.

فالرجل هو فلك العائلة وأساس المجتمع، ورب الأسرة بالمعنى اللغوي، أي: سيدها. فقد جعله الله سبحانه وتعالى مديراً عاماً للأسرة وأعطاه امتيازات إدارية، إذ قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[5].

(٤) غيبة النعماني: ١/ ٢٧٤.
(٥) النساء: ٣٤.

فإذا كان الرجل ضعيفاً أو تخلى عن مسؤولياته، كانت العائلة بلا إدارة، وظهرت المشاكل الاجتماعية التي منها: الأولاد المنفلتون، والنساء الخارجات عن السياق المنتظم.

فالرجل القوي الشخصية لا يكون جباراً أو ظالماً، بل يضع الأمور في موضعها ويتعامل بحكمة أو صرامة حسب الحاجة، ويجب على الرجل أن يمد جناحيه على أسرته، ويضمهم ويرعاهم، ويُشبع عاطفتهم برحمته وبأبوته وبأمانته. والتربية الصحية تختلف عن مجرد إطعام الأولاد وكسوتهم؛ فالأب يجب أن يُغذي أولاده بالتربية الصحيحة المأخوذة من الثقلين.

وبما أننا نعيش في عصر غيبة ولي الأمر ومدير شؤون المجتمع على جميع مستوياته فيتحتم على المؤمن أن يهتم بأربعة جوانب رئيسة؛ لِتُكوّن شخصيته الرصينة القوية:

١- **الثقافة الشخصية (الدينية)**: وهي فقه المؤمن وعقائده، أي: حلاله وحرامه ومفاهيمه وما يرتبط بسلوكه واعتقاداته.

٢- **الثقافة الاجتماعية**: وتعني التواصل الإيجابي والتفاعل مع المحيط، من الأقرباء والأهل وذي الرحم والجيران والعشيرة وشركاء العمل.

٣- **الجنبة الاقتصادية**: يجب أن يتحمل المسؤولية الاقتصادية، وأن يعمل ويجتهد وينتج ويكسب الرزق

بشكل صحيح. وعليه أن يتوكل على الله تعالى ولا ينتظر رزق الدولة أو صدقة المسؤول من تعيين او نحوه. فمن توكل على الله كفاه وأكفى غيره به. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اسْتَغْنِ بِالله عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ وَاحْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ»[٦].

٤- الثقافة والوعي السياسي: وتعني التفاعل الواعي مع المشاكل السياسية للمجتمع. فعليه ألا يكون رجلاً خفافاً وراء كل صائح ومنادي. إن أقدم، فيقدم على بصيرة وشجاعة، وإن تجنب، تجنب عن بصيرة وليس عن خوف. ولا تؤثر فيه الأصوات الإعلامية المغرضة التي تهدف لزعزعة الواقع ولا تهزه تلك المبالغات، بل يرى الحقيقة بعقله لا بعدسة الآخرين.

الأنموذج الأعلى:

قدّم أمير المؤمنين عليه السلام وصفاً لـ"أخ في الله" يمثل كمال الرجولة والمؤمن الصالح -والذي ينبغي للمؤمن أن يتصف بهذه الصفات في عصر الغيبة- إذ قال:

«كان لي فيما مضى أخ في الله: كان يعظّمه في عيني؛ صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره

(٦) الإرشاد: ١/ ٣٠٣.

صامتاً، فإن قال بذ[٧] القائلين، ونقع[٨] غليل السائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإن جاء الجد فهو ليث عاد، وصل واد، لا يدلي بحجة حتى يأتي قاضياً، وكان لا يلوم أحدًا على ما لا يجد العذر في مثله، حتى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعاً، إلا عند برئه، وكان يفعل ما يقول، ولا يقول ما يفعل، وكان إن غلب على الكلام، لم يغلب على السكوت، وكان على أن يسمع، أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا بدهه أمران: نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه، فعليكم بهذه الخلائق فالزموها، وتنافسوا فيها»[٩].

ختاما: إذا لم يستطع المؤمن تحقيق جملة هذه الأخلاق، فإن أخذ قليلها خير من ترك كثيرها.

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية
www.darhikma.net

(٧) يتفوق على الأقران في كلامه.
(٨) كلماته الحكمية، تروي عطش جلسائه.
(٩) بحار الأنوار: ٦٧/ ٣١٤.